

عزيمتي القارئة، عزيز القارئ

عندما أوسع أحياناً، وعلى غير هدى، في المنطقة المخصصة للمشاة في إحدى المدن الكبيرة، وأنظر إلى وجوه الناس التي تشوهت بفعل الإرهاق، يبدو لي أثناء مرورها بعجالة وكأن قوة خفية تسيروها. يخطر في ذهني أحياناً السؤال فيما إذا كانت هذه الحمى نفسها المفروضة على كثير من أبناء هذا العصر يمكن أن تكون نوعاً من الإرضاء البديل؛ لأن المرء بات يرى حياته قد أصبحت في منتهى الملل والرتابة، وفقدت لونها.

يذكر «كونراد لورنتس» Konrad Lorenz الباحث المرموق في أنماط السلوك، في كتابه تحت عنوان «الآثام الكبرى الثمانية للإنسانية المتحضرة» القصة القصيرة التالية:

«أثناء تجوالنا في غابة، سمعت زوجتي، كما سمعت أنا، بشكل غير متوقع، أصواتاً تتطلق من جهاز راديو محمول يقترب منا بسرعة، يحمله شاب في حوالي السادسة عشرة من عمره، في كيس أمتعته الذي يحمله على ظهره ويقود دراجة هوائية. علقت زوجتي على الموضوع قائلة: إنه خائف. كان بإمكانه أن يسمع زقزقة العصافير. أما أنا فاعتقدت أنه لا يخشى إلا أن يقع، ولو للحظة، في خطر المواجهة مع نفسه».

أن يواجه المرء نفسه، أن يهدأ، ويعود إلى نفسه، هذه كلها بالنسبة لهذا الباحث صفات إنسانية قيمة، إما نسيها معظم

الناس المعاصرين، أو ضحوا بها لأصنام مجهولة تبعدهم عما يجب أن يكونوا عليه، أو بالأحرى عن جوهرهم كبشر. معظم الناس يشعرون بأن لديهم خيلاً وإبداعاً لكنهم على الدوام مشغولون عنها بأشياء أخرى، بحيث لا يجدون أبداً الوقت للاقترب من أنفسهم والانكباب عليها.

أصبحت، مع الأسف، أولوية ما يسمى بـ «الحياة اليومية» بالنسبة لأناس يزداد عددهم باستمرار، قيّداً صعباً يكبل غناهم الفكري العضوي. إنهم يعرفون بشكل تلقائي بأن عليهم التخلص منها، لكنهم يجدون أنفسهم في نهاية المطاف دائماً وأبداً غير قادرين على ذلك. إنهم بذلك يحرمون أنفسهم من فرصة كبيرة، وهي فرصة العيش بحرية أكثر، وفرصة حل المنغصات اليومية بطريقة خلاقة أكثر مما يفعل معظم الناس عادة، حيث يبدو دائماً وأبداً بأن معظم المشكلات يمكن حلها بأسرع (أو على الأقل تخف حدتها) عندما يتم التعامل معها بالأسلوب الخلاق، سواء أكانت تتعلق بالمجال المهني أم بالحياة الشخصية.

هناك حقيقة أنه قلما يمكن لإنسان، لا يعيش خلف أسوار الدير، أن يكون في منأى عن دوامة عجالة الحياة اليومية والضغط الاجتماعي وفقدان الخيال المفروض عليه. فمن منا لا يريد أن ينعزل ولو لمرة واحدة كلياً وأن «يترجل» على الأقل لفترة وجيزة؟

إن ذلك ليس في غاية الصعوبة. والعبارة السحرية التي تعبر عن هذا الموقف هي «الفراغ الخلاق» التي يمكن بواسطتها أن

يصبح ذلك ممكناً وبسهولة أيضاً. فمن خلال الخيال يمكننا أن نغير أجزاء من محيطنا- وبالتأكيد - من أنفسنا نحو الأفضل. وقد سبق أن علمنا أرسطو:

«إن التركيز على الأشياء الجوهرية يتحقق بالشكل الأفضل عن طريق الراحة المؤقتة، فعندما يبدو ظاهرياً أن المرء لا يفعل شيئاً، فإن شيئاً يعتمل في داخله، إننا نحقق أعظم الإنجازات عندما لا تقوم بأي عمل، فعند ذلك يصحو الخيال الذي يدب الحياة في كل شيء.»

ميونيخ.

هيرمان إيمان

